التراث الثقافي والتنمية الترابية: حالة كتلة زرهون

عبد الحكيم بن عاشور(باحث بسلك الدكتوراه. كلية الآداب سايس، فاس)
علي فالح (أستاذ التعليم العالي. كلية الآداب سايس، فاس)

تتسم الظرفية الدولية الراهنة بتحولات عميقة، وضعت كل شعوب ودول العالم أمام تحديات كبيرة من شأن عدم رفعها أن يفقدها شخصيتها ويقوض دعائم حضارتها، ويتهدد بقاءها كأمم متميزة، ولعل هذا ما يشير له العديد من الباحثين، أبرزهم (المهدي المنجرة2006) الذي يؤكد أن أساس النظرة المستقبلية للتنمية يكمن في تلك الطاقة المتجددة، وهي القيم الثقافية التي تعطينا القدرة على المقاومة والتكيف والتطور، وبالتالي تحول بيننا وبين الاقتلاع الثقافي.[1] كما يعتبر (لحسن جنان2007) موضوع التراث من المواضيع ذات راهنية قوية ببلادنا، خصوصا على مستوى سياسة التنمية وإعداد التراب، باعتبار التراث ليس فقط إرثا من الماضي بل أيضا موردا ترابيا بالنسبة للتنمية، وبأن إدماجه في مسلسل التنمية وإعداد التراب ضرورة ملحة خاصة في بلد كالمغرب يعتبر فيه التراث جزء من كيان الأمة، ووجها من أوجه أصالتها وتطورها على مر العصور، وضمانا لاستمرارية ورسوخ قيمنا الفكرية والروحية.[2]

فالقيم الثقافية والتراث الثقافي بشكل عام، تعتبر مرجعية تاريخية وثقافية حاسمة في تركيز دعائم ومقومات الشخصية المحلية والوطنية، وتقوية الشعور بالانتماء. كما نعتبره من أهم العناصر التي يمكن أن تشكل طاقة وثروة كبيرة تتهيكل حولها العديد من الانشطة التي تسمح بخلق قيمة مضافة اقتصادية وثقافية واجتماعية وايكولوجية...

نود من خلال هذا المقال تأكيد أهمية التراث الثقافي في تحقيق التنمية بمختلف مستوياتها ومجالاتها، إذ بإمكانه أن يساهم في تنويع عناصر الاقتصاد المحلي، وتحقيق الرقي الاجتماعي، واستدامة الخصوصيات الثقافية باعتبارها تراثا يستدعي الحماية والصيانة، خصوصا بالمجالات التي تزخر بعناصر تراثية غنية ومتنوعة ككتلة زرهون.

I - تثمين التراث الثقافي رهان قوي بالنسبة للتنمية الترابية

إن ثنائية "التراث والتنمية" ظلت ولفترات طويلة محط جدال ونقاش بين العديد من الباحثين والمتخصصين، فمنهم من يدافع عن أولوية المنفعة الاقتصادية على التشبث بالتقاليد والثقافة المحلية (أمارتيا سن.2000) "إن الأفضل للأمة أن تكون غنية سعيدة عن أن تكون فقيرة متشبثة بعاداتها وتقاليدها".[3] ومنهم من يعتبر أن هذه الأخيرة أصبحت تشكل في العديد من البلدان موردا ترابيا، مصدرا لقيمة مضافة اقتصادية

[1] **المهدي المنجرة:** قيمة القيم، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء. ص15

[2] **لحسن جنان:** كلمة تقديم مجلة دفاتر جغرافية، التراث والمجال والتنمية، العدد4/3، 2007.

[3] **امارتيا سن**(2000) : التنمية حرية، سلسلة عالم المعرفة،عدد303، مايو2004، ص45.

واجتماعية وثقافية وجمالية. ففي لندن مثلا الصناعة الثقافية تشكل قطاعا اقتصاديا حيويا يساهم بـ10% من الناتج الداخلي الخام، ويشغل أكثر من 20% من قوة العمل.[4] صناعة تتأسس من خلال تعبئة وتثمين التراث الثقافي باعتباره طاقة وثروة كبيرين.

قد يعتقد البعض أن التراث نظرة ماضوية وجامدة، تعتمد على الترميم والصيانة والحفظ، لكن هذه نظرة ضيقة ومتجاوزة. فقد أصبح هذا الأخير يعتبر في العديد من البلدان موردا ترابيا يسمح بتحقيق قيمة مضافة اقتصادية واجتماعية وثقافية..، كما يمكن أن تساعد الأنشطة الثقافية على تنمية رأس المال الاجتماعي والإنساني، وتعزيز التطور الشخصي وزيادة الثقة بالنفس، وتحسين ظروف الحياة.

فهل نحن واعون بأهمية التراث الثقافي، بما يمكن أن ينتجه من ثروات؟ وبضرورة تجاوز النظرة السائدة التي ترى فيه عنصرا مهما يدعم مقوماتنا التاريخية من خلال ما يجسده من معالم؟ هل تجاوزنا هذه النظرة إلى مستوى توظيف التراث الثقافي أو إعادة تعبئته في أنشطة اجتماعية وثقافية واقتصادية؟ فهذا هو البعد الجديد في تعبئة التراث الثقافي، والضمانة لاستمرارية صيانته والحفاظ عليه، والسبيل لتحقيق تنمية شمولية ومستدامة.

ومن هذا المنطلق يكون تثمين التراث الثقافي رهان قوي بالنسبة للتنمية الترابية، ويتجلى ذلك حسب(لحسن جنان2008) من خلال بعدين على الاقل:

- **التراث كمورد التنمية المستدامة للمجالات**: وذلك من خلال شكلين من المنافسة الترابية: الجودة الخاصة والقدرة على التجديد، بانتقاء بعض الموارد الترابية ومصاحبة نقلها وصيانتها واستثمارها ببعد اجتماعي وثقافي وهوياتي، وهو مسلسل سيساهم في انغراسها مجاليا وترقيتها إلى مورد تراثي. تضم هذه الفرضية فكرة أساسية مفادها أن التراث ليس بمورد عادي أو مورد اقتصادي محض بل يندرج في إطار الديناميات الترابية وفي تنظيمها.
- **التراث في خدمة بناء المجالات (حدود، شبكات وبنيات)**: ففي إطار جغرافي معقد، حيث يصعب ضبط خيوط التجانس التاريخي والجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، يمكن للشبكات الإسهام في هيكلة التراب، انطلاقا من عناصر تراثية تشكل في حال تعبئتها بنية مشاريع التراب، وبدائل حقيقية للتنمية الترابية، التي تقتضي الانطلاق من مستويات ترابية أصغر بمواردها الترابية المحلية، وفاعليها المحليين، وخصوصياتها الثقافية، وذاكرتها الجماعية المشتركة، لتشكل حيزا ترابيا(territoire) قد يكون كتلة جبلية أو جماعة قروية...[5]

[4] **شارلز لاندري** (2007): لندن كمدينة إبداعية، سلسلة عالم المعرفة، الصناعات الإبداعية، ص30.

[5] **لحسن جنان**(2008): محاضرات السنة الثانية من ماستر: التراث والمجال والتنمية، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.

أصبح التراث الثقافي إذا يشكل عاملا إيجابيا بالنسبة للتنمية الترابية، إذ يمكنه أن يقوي الإحساس بالانتماء لمجال ترابي ما، ويساهم في توحيد الجهود وتآزرها، ويتيح إمكانية التعاون بين أفراد المجموعات البشرية التي تتقاسمه، ويشكل مصدرا لخلق أنشطة اقتصادية وثقافية واجتماعية، وهي عناصر تشكل دعامات حقيقية لأي تنمية شمولية ومستدامة.

II - التراث الثقافي بكتلة زرهون: رصيد غني ومتنوع

لعبت كتلة زرهون منذ فترات مبكرة من تاريخ المغرب دورا محوريا في بناء حضارات قوية، تمتد جذورها للقرون الأولى الميلادية مع الإمبراطورية الرومانية، هؤلاء الذين استهوتهم خصوصيات المنطقة ومقوماتها. وساهموا بذلك في تدعيم أسس حضارتها، وإغناء تراثها المحلي المتميز. كما احتضنت الكتلة اللبنات الأولى لبناء الدولة المغربية الإسلامية، فالمجوعات البشرية الأمازيغية (قبيلة أوربة) التي استوطنت المجال منذ فترات مبكرة تتجاوز الوجود الروماني، كان لها بالغ الأثر في نصرة الدعوة الإسلامية، وساهمت بذلك بقدر وافر في بناء الحضارة المغربية الإسلامية وتدعيم أسس الهوية المحلية.

لكن سرعان ما بدأت المنطقة تفقد مركزيتها ودورها المحوري لصالح المجالات المجاورة (فاس- مكناس)، وأصبحت على غرار العديد من المجالات ببلادنا في الهامش، غارقة في أزمات متعددة الجوانب والأبعاد، سواء تعلق الأمر بمجالها الحضري أو القروي على السواء. [6]

فمدينة مولاي إدريس زرهون ذات الماضي الزاهر، أصابها الخمول، وفقدت دورها كعاصمة محلية بالنسبة لمنطقة مقدمة الريف الجنوبي الغربي، لصالح المثلث الحضري مكناس- فاس- سيدي قاسم، ولم تعد تستفيد بالقدر الكافي من النشاط السياحي الذي تعرفه مرتفعات كتلة زرهون وأنقاض وليلي. [7]

بالإضافة لانخفاض نشاط المواسم المحرك الأساسي لاقتصاد المدينة، إذ بدأت تفقد إشعاعها الديني أمام تزايد أهمية الأضرحة المجاورة كسيدي علي بنحمدوش بدوار سيدي علي المجاور على سفح جبل زرهون، والشيخ الكامل بمكناس، أو لصالح زوايا تتزايد أهميتها بشكل لافت في الآونة الخيرة كالزاوية البودشيشية بالشرق. وأصبحت بذلك تعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية وثقافية متفاقمة تحد من وتيرة التنمية وتكبح مسارها.

[6] **WAHBI. D (1984):** Moulay Idriss du Zerhoun, évolution d'une petite ville traditionnel en crise, 2vol, thèse de 3ème cycle en géographie, Univ. De Tours.

[7] **BENHALIMA. M.T (2005)** : Etude de la problématique de développement du tourisme culturel et rural dans la zone de Moulay Idris Zerhoun-Volubilis, thèse de III cycle. ENA de Meknès.

هذا بالإضافة لإشكالية تدبير موقع وليلي الأثري، الذي لا تستفيد المنطقة من عائداته المقتصرة على واجبات الدخول، والتي تستفيد منها وزارة الثقافة، في حين يمكن أن يعبأ الموقع في أنشطة عديدة تسمح باستفادة المجال والإنسان من هذا المورد الأساسي بالمنطقة.

هذا وتخضع المنطقة ككل وعلى غرار المجال المغربي عامة، لمجموعة من الإكراهات والتحديات التي تفرضها ظروف الانفتاح والعولمة، مما يجعلنا نتساءل عن مدى قدرة المنطقة بمواردها الترابية، وإمكاناتها الذاتية على رفع هذه التحديات والانخراط الإيجابي في هذا المسلسل، فأمام هذا الوضع أصبح لزاما تنويع عناصر الاقتصاد المحلي بتعبئة كل مواردها التراثية وتثمينها. ولعل أبرزها مختلف مكونات التراث الثقافي الغنية والمتنوعة. والتي يمكن تصنيفها إلى تراث مادي وآخر لامادي.

1 - التراث الثقافي المادي: مورد تراثي يقتضي التعبئة والتثمين

ساهمت مجموعة من العوامل التاريخية والجغرافية والسياسية في إفراز تراث ثقافي متنوع بالكتلة يزاوج بين المدينة الرومانية والمدينة الإسلامية وبعض القصبات والمواقع التاريخية، ويحوي تراثا معماريا يعد حاليا من أهم مظاهر التراث المعماري المبني بالمغرب. وإذا كان المعمار بوليلي الذي يحيلنا على مرحلة خضوع المغرب للهيمنة الرومانية قد تحول إلى مآثر، فإن مدينة المولى إدريس لا تزال تحافظ إلى حد ما على استمراريتها وحيويتها إلى الآن.

1-1 موقع وليلي الأثري أو قصر فرعون

يضم العديد من المكونات المادية التي تشكل موارد تراثية لقيمتها التاريخية والجمالية والأركيولوجية المتميزة، ولعلها كانت العناصر التي أهلت وليلي لتسجل كتراث عالمي إنساني في 26أكتوبر1996.[8] إذ يتوفر الموقع على معالم كثيرة تجمع بين:

- المآثر ذات الوظيفة الإدارية : قصر العدالة والمعبد الرئيسي والساحة العمومية.
- المآثر ذات الوظيفة الاقتصادية: تشمل معاصر الزيتون، ومطاحن الحبوب، والأفران، ومرافق تجارية، ومحلات حرفية.
- المآثر ذات الوظيفة المجتمعية : الأحياء المهنية والحمامات وقنوات جلب المياه الصالحة للشرب والسقايات وقنوات التصريف.
- المآثر ذات الوظيفة الرمزية أو ذات البعد الاحتفالي والجمالي : منها قوس النصر الذي شيد احتفاء بالإمبراطور كاراكلا، الذي منح حق المواطنة الرومانية لغير الرومان من الأحرار بالمناطق التابعة للإمبراطورية سنة 212م، والفسيفساء في بعض المساكن، والمرافق الإدارية وغيرها، إضافة إلى المنحوتات والتماثيل...

8 **ICOMOS(1996)** : Liste du patrimoine mondial, Volubilis, N°836.

كما نركز هنا على أهمية المكونات غير المادية للموقع، من عادات وتقاليد، وأشكال فريدة في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي للجماعات البشرية التي استوطنت الموقع، وكيفت نفسها بأساليبها وتقنياتها الخاصة في الإنتاج والتدبير مع خصوصيات المجال، مع إمكاناته وإكراهاته. وهي عناصر يمكن أن تتهيكل حولها مجموعة من الأنشطة الثقافية والاقتصادية التي تسمح بتحقيق قيمة مضافة ثقافية، واقتصادية، واجتماعية.

2-1 مدينة مولي إدريس زرهون التاريخية

1-2-1 نبذة عن تاريخ المدينة

ساهمت مجموعة من العوامل الجغرافية والتاريخية والدينية والسياسية في استقرار السكان بالمنطقة منذ فترات مبكرة، إذ تشير الدراسات والأبحاث التاريخية والأركيولوجية إلى استقرار المولى إدريس بمدينة وليلي، في حين تختلف حول تاريخ إنشاء مدينة مولاي إدريس، فقد أكدت الأبحاث الأركيولوجية التي أقيمت حول المدينة. وجود بقايا آثار رومانية كعين الحامة، وكذا العديد من النقود وقطع الفخار.[9] والتي تطرح فرضية إمكانية وجود تجمع حضري بالموقع في الفترة الرومانية.

لكن العديد من المصادر التاريخية ترجع إنشاء المدينة حول ضريح المولى إدريس إلى القرن 16 الميلادي. والشهادة الوحيدة التي تدل على ذلك ما أورده ابن الغازي (الروض الهتون) والذي يتحدث عن "خيبر" و"تازكة" وهما اسمين لأكبر أحياء المدينة حاليا، ومن المفترض أن هذين الحيين كانا عند مطلع القرن 16م عبارة عن قريتين يتموضع بينهما ضريح إدريس الأول.[10]

لتعرف المدينة بعد ذلك توسعا عمرانيا خاصة في نهاية القرن السابع عشر، إذ سيقدم المولى إسماعيل سلطان الدولة العلوية(1699م)، على إعادة بناء الضريح وتزيينه وإحاطته بمدرسة لتحفيظ القرآن ومجموعة من السقايات العمومية والمحلات التجارية، كما سيتمم المولي يزيد مابين(1790و1792م) بناء مسجد الخطبة الكبير ومسجد السلاسي في حي تازكة، والمولى الحسن الأول(1873-1894م) من بعده قام ببناء الحمام العمومي، والمولى عبد العزيز(1894-1908م) بتزويد المدينة بقنوات مياه الشرب.[11] فجاءت المدينة تحفة معمارية تشمل كل المرافق الضرورية للحياة. وهكذا قدم حفدة المولى ادريس للاستقرار بالمدينة ثم بدأت المدينة تنمو وتنتظم، وتكاثر الوافدون عليها من مناطق شتى.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار، إلى أن تاريخ المدينة يرتبط ارتباطا وثيقا بالضريح الذي تحتضنه، مما يبعث على القول بأن العامل الديني كان هو السبب المباشر في ظهور المدينة. والملاحظ أن نفوذ الزاوية الإدريسية قد ظل

---

[10] **P.BERTHIER(1938)** : Essai sur l'histoire du Massif de Moulay Idris. p104.

[11] **P.BERTHIER(1938)** : même réf. p107.

[12] **M.MAKDOUN(2008)** : Essai sur les potentialités touristiques du Massif du Zerhoun. Texte manuscrit, p20, inédit.

محدودا حتى مطلع القرن 16م، ولم يتسع إلا عند نهايته بحيث أصبح نفوذها يمتد إلى كل الحدود الوطنية. وقد كانت هناك بطبيعة الحال، عدة عوامل ساعدت على هذا التوسع والشهرة، لكن يبقى أهمها العامل السياسي، فضعف السلطة المركزية أمام مواجهة العدوان النصراني قرب الشواطئ المغربية، وخاصة الاعتداءات البرتغالية والإسبانية، دفع بالسكان إلى الإلتفاف حول الأولياء والدعاة الذين أصبحوا ينظمون ويوجهون حركية الجهاد. كما أن الدولة العلوية والتي كانت في بداية نشأتها تبحث عن الدعم الديني لتبرير مشروعية حكمها، قد وجدت ضالتها في هذه الزاوية، فكان اهتمامهم بها سببا في توسيع نفوذها الديني والعقائدي.

من خلال الإطار التاريخي للمدينة يمكن أن نخلص إلى أن أسس قيام مدينة مولاي إدريس زرهون هي أسس دينية قبل أن تكون سياسية، فهي بالرغم من اعتبارها مدينة تقليدية صغيرة إلا أنها لعبت أدوارا تاريخية دينية وسياسية لا يمكن للمهتمين بتاريخ المغرب إغفالها. إلا أنها بدأت تفقد إشعاعها وأهميتها، وبالتالي أصبح لزاما تنويع عناصر الاقتصاد المحلي بتعبئة كل مواردها التراثية وتثمينها.

2-2-1 عناصر تراثية ذات قيمة متميزة

تعتبر المدينة نموذجا للمدن الاسلامية المتميزة بعمارتها الخاصة، إذ نجدها تتهيكل حول المركز (ضريح المولى إدريس)، وتتضمن مختلف المرافق والمنشآت المعمارية الضرورية، والتي يمكن تصنيفها كالآتي:

- معمار له وظيفة دينية: ويشمل الأضرحة، والمساجد، والصوامع (صومعة السنتيسي الدائرية) التي تتميز بمعمارها الفريد.
- معمار له وظيفة سوسيو-اقتصادية: يتجسد من خلال الفنادق، والدكاكين، والمقاهي القديمة، وورشات النسيج (الدرازة)، والخياطة، ومعاصر الزيتون، والأزقة الضيقة والمتقاربة، والسقايات ... إلخ.
- معمار له وظيفة سكنية: يبرز من خلال دور الطبقات التقليدية الميسورة، وهي عبارة عن منازل كانت تزين بالفسيفساء والزليج، وكانت هندسة المسكن خاضعة لتصميم يجمع بين البعدين الجمالي والوظيفي، وكلها أشكال تمتاز بدقة التصاميم الهندسية، وكانت تؤدي وظائف محددة إلى جانب جمالية الأشكال والألوان.

ومن المعروف أن مدينة مولاي إدريس زرهون لم تحط بأسوار أو أبراج، ولعل ذلك راجع بالأساس لموضعها الجغرافي الذي يوفر لها حماية طبيعية، حيث تم بناء المدينة فوق صخرتين شديدتي الانحدار ووعرة الاتصال، فكان شكل المساكن متضايقا ومتراكما مع تواجد عدة أبواب في بعض الأحياء، منها باب الحفرة، باب العوينة، باب الحجر، باب خيبر، باب بني يازغة وباب عين الرجال، من خلالها تحدد مداخل الأحياء الرئيسية. وأما عن

الأحياء الصغرى فنجدها متسلقة الجبال بممراتها المتعرجة والمظلمة "الصابات" وأدرجها الكثيرة، التي تمنح المدينة تميزا خاصا.

ظلت المدينة لفترة زمنية طويلة تستجيب بمرافقها ومنشآتها لخصوصيات المجتمع الزرهوني، رغم التحولات العميقة التي عرفها، إلا أن الاشكالية المطروحة حاليا، تكمن في مدى ملائمة المعمار التقليدي للتحولات المجتمعية والاقتصادية، والمتغيرات التي همت القيم الثقافية والسلوكية. مما يقتضي ضرورة إدخال تعديلات على المجال العتيق للمدينة مع الأخذ بعين الاعتبار الحمولة التاريخية والبعد الجمالي لمكوناته المتميزة.

3-1 موقع سيدي علي بن حمدوش

على السفح الجنوبي لكتلة زرهون وبارتفاع يناهز680م يستقر موقع علي بن حمدوش، نسبة لدفينه علي بن حمدوش،[12] كتجمع قروي ذي طابع تقليدي ملتف حول الضريح، ومحاط بمجموعة من التجمعات السكانية كبني راشد وبني وراد وبني جناد.

ويعتبر ضريح علي بن حمدوش مركز الموقع، ويتسم بطابعه المعماري الأصيل، وبمحاذاته توجد العديد من الدور العتيقة، مشكلة في مجملها قرية عتيقة ذات وظيفة دينية بالأساس. يمكن بمعمارها الأصيل وساكنتها المحلية وما تحمله من عادات ومهارات أن تعتبر قرية نموذجية.

4-1 قصبة بني عمار

على ارتفاع حوالي 760م وفي الجزء الشرقي لكتلة زرهون، تستقر قصبة بني عمار مند فترات مبكرة من التاريخ، اختلفت الروايات في تحديدها بدقة، فلم نستطع في بحثنا عن تاريخ القصبة تحديد البدايات الأولى لوجودها، إذ لم نصادف أي مرجع أو مصدر يذكر تاريخها، في حين يرجع العديد من شيوخ القصبة الذين قمنا بمقابلتهم، تاريخها للفترة الموحدية، ويؤكدون ذلك ببقايا صومعة الخنادق، التي تتواجد في الجزء الشمالي الغربي من القصبة.

كما أن نمط بنائها التقليدي الأصيل، انطلاقا من أبوابها وأزقتها الضيقة والمتعرجة، توحي بقدم عمرانها وتجدرها في التاريخ، مما يمنحها قيمة جمالية وتاريخية متميزة، باعتبارها تراثا معماريا قرويا (architecture vernaculaire rural).

[12] هو أبو الحسن علي بن حمدوش، عاش في عهد السلطان إسماعيل، وتشبع بالطريقة الجزولية الشادلية، وأصبح له طرق ومقدمون ومريدون وشيوخ يحجون إليه من مختلف مناطق المغرب.

5-1 قصبة النصراني

في الجزء الشرقي لكتلة زرهون، وبتراب جماعة سيدي عبد الله الخياط القروية، تتموقع قصبة النصراني أو (برج الرومي) –كما تسميها الساكنة المحلية– على قمة جبل النصراني (1031-1077م) في موقع استراتيجي يسمح بمراقبة كل المجالات من حولها. وتتخذ شكل مضلع بأسوار يصل عرضها مترين وارتفاعها 5 أمتار، تتخللها حصون وأبراج للمراقبة وتمتد على مساحة 4 هكتارات، [13] مشكلة بذلك تراثا معماريا فريدا.

لكن رغم الأهمية التاريخية للقصبة، فإنها تعاني اليوم من التدهور وقلة الاهتمام، ولم يسجل أي تدخل لصيانتها وترميمها.

صورة قمر اصطناعي رقم:1

نشير في الأخير كوننا لم نشأ ذكر مجموعة من عناصر التراث المادي بتفصيل، لقلة أهميتها كموارد تراثية متميزة بكتلة على غرار الموارد السالفة الذكر. وكمثال على ذلك موقعي عين الشقور وتوكولوسيدا الأركيولوجيين، وعين الحامة المعدنية قرب مدينة مولاي إدريس زرهون، التي يرجع تاريخ إنشاءها للفترة الرومانية، هذا إضافة لتجمعات سكانية قروية فقدت طابعها التقليدي الأصيل كآيت احساين، وتالغزة، والحفرة، والقلعة، وتازة، وأولاد يوسف...

[13] **Paul. BERTHIER (1938)** : Essai sur l'histoire du massif de Moulay Idris, de la conquête musulmane à l'établissement du protectorat français. Ed, Félix MANCHO, Rabat. p83.

2 - التراث الثقافي اللامادي: مورد لم يرقى تثمينه للمستوى المطلوب

2-1 المواسم

الموسم حفل كبير، موعد سنوي للالتفاف حول حدث تاريخي أو ديني أو عادات وتقاليد(موسم إملشيل) ساهمت في تشكيل هوية مجموعة بشرية. وزرهون بتاريخها العريق، تميزت منذ القدم باحتضانها مواسم سنوية (موسم مولاي إدريس زرهون و موسم سيدي علي بن حمدوش...).

- **موسم مولاي إدريس:** دأبت قبائل من مختلف جهات المغرب على زيارة ضريح المولى إدريس الأول منذ القدم، تيمنا ببركته وخاصة في فترات الجفاف، لكن هذه الزيارات ستنحوا منحى آخر لتصبح موسما دينيا رسميا. يتم الاحتفال خلاله وفق مرحلتين: تسمى الأول بموسم العالميين(الشرفة) الذي يعرف باسم "الموسم الصغير"، والثانية تعرف بموسم القبائل أو "الموسم الكبير".

ينطلق موسم العالميين في الخميس الأخير من شهر غشت، يتم خلاله قراءة القرآن الكريم، والقصائد الدينية من طرف مداحين قادمين من مختلف مناطق المغرب (مكناس، تافيلالت...). في ساحة قرب مدخل الضريح (ساحة المسيرة الخضراء) وما يميزه هو دخول موكب العالميين مرفوقين بالشموع والحناء، ممتدا بعد ذلك لمدة أسبوع.

ومباشرة بعد ذلك، يبدأ موسم إدريس الأكبر أو ما يعرف بـ (الموسم الكبير)، الذي ينطلق في الخميس الأول من شهر شتنبر وينتهي في الخميس الثاني من أكتوبر، يتم خلاله استعراض الفرق الفلكلورية كالخيالة (حي خيبر) وفرق عيساوة وحمادشة، بالإضافة إلى رقصات جماعية [14]، كما يخصص كل أسبوع لقبائل معينة. وتختلف الطريقة الحالية للاحتفال عن متيلتها في السابق، إذ لم تكن تتجاوز فترة الاحتفال أسبوعا واحدا [15] تتجمع خلاله قبائل من جهات مختلفة من المغرب (مكناس وفاس وتازة...)، على الذكر والأمداح النبوية، في حين نجدها اليوم تمتد على مدى ثلاثين يوما.

- **موسم سيدي علي بن حمدوش:** على بعد حولي 15كلم من مدينة مولاي إدريس زرهون في اتجاه الجنوب، يتواجد مركز سيدي علي، حيث يقام موسمه السنوي وفق عادات وطقوس خاصة. إذ بدأ الموسم في الآونة الأخيرة ينحو منحى سيئة، بظهور عادات دخيلة على الموسم، تتزايد انتشارا سنة تلوى الأخرى، من سحر، وممارسات موغلة في الخرافة والشعوذة، والمعتقدات السحرية المتخلفة واللأخلاقية.

---

[14] **باشوية مولاي ادريس زرهون(2009):** التقرير السنوي حول موسم مولاي إدريس الأكبر.

[15] **نفسه.**

كما تعرف المنطقة مواسم ذات إشعاع محلي محدود كموسم أحمد الدغوغي بقرية بني راشد، وموسم سيدي موسى بقرية موساوا، وموسم عبد الله الخياط بقرية تالغزة...

نود أن نشير في نهاية هذه الفقرة، إلى أن الهدف من إيرادنا هذه المواسم لم يكن دعما لطابعها الخرافي الحالي، بل محاولة منا لإبراز التحولات التي عرفتها، من مواسم دينية ثقافية، إلى ملتقى للسحرة والمشعوذين، يكرسون خرافات ومعتقدات متخلفة، ويوهمون الناس بإمكانية قضاء حاجات لم يستطيعوا قضاءها بالطرق الطبيعية المعتادة. نحن نسعى لاعتبار المواسم لقاءات ثقافية تنموية، تساهم في إحياء الذاكرة الجماعية (ندوات، محاضرات ولقاءات علمية...)، تقوي الهوية المحلية والإحساس بالانتماء لحيز ترابي محدد، بثقافته المحلية، وبأحداثه وشخصياته التاريخية المتميزة.

2-2الموسيقى وفنون العزف

تلجأ إليها الساكنة في المناسبات و الأعياد للتعبير عن الفرح والنشاط، كما لجأ إليها الأولون في الحرب للتحميس والتشجيع والتمدح بالنصر والفضائل، فلم يكن الزراهنة دون سائر المجتمعات، بل كانت لهم ولا تزال أنغام وألحان أنتجوا فيها تراثا غنيا وغزيرا.

حمادشة: منذ القرن 17م برزت الطريقة الحمدوشية نسبة لأبي الحسن علي بن حمدوش مؤسس الطريقة الحمدوشية، ومنها الموسيقى الحمدوشية ذات الطقوس الغريبة التي يعتبرها البعض دخيلة على الطريقة وذات أصول سودانية، إذ تشير بعض المصادر لوفود مجموعات بشرية (سود) من السودان واستقرارها بمنطقة زرهون وبالضبط في دوار بني راشد. يقوم الرجال والنساء بأداء رقصات على إيقاع موسيقى كناوية، مستعملين في ذلك أدوات موسيقية من مزامير ودفوف وطبول.

عيساوة: نسبة للزاوية العيساوية بمكناس، والتي تأسست منذ القرن16م من طرف الشيخ سيدي محمد بن عيسى، وانتشرت طريقتها بمناطق واسعة من المغرب من بينها زرهون، وتعتبر الموسيقى الأكثر شعبية بالمنطقة إذ نجدها حاضرة في كل المناسبات من مواسم وأعراس...

السماع: من أهم الألوان الموسيقية بالمنطقة وهو عبارة عن مقطوعات في المدح النبوي، تعتمد في أدائها على أنغام الموسيقى الأندلسية وفي بعض الأحيان دون آلات موسيقية، تعرف تطورا ملحوظا في الآونة الأخيرة بعد الإقبال المتزايد من طرف الشباب على هذا اللون الموسيقي، والذي نلمسه أساسا من خلال دينامية جمعية مولاي إدريس زرهون للمديح والكلام النفيس الحديثة النشأة.

الموسيقى الأندلسية: تراث وفد إلى المنطقة على غرار باقي المدن المغربية كفاس والرباط وسلا من الأندلس، يعتمد على آلات متميزة ونوبات وميازين أصيلة.

هذا إضافة للفروسية باعتبارها نشاط موسمي يرافق المواسم التي تقام بالمنطقة، يتباهى خلالها الفارس بقوة فرسه وجماليته في عروض فولكلورية فريدة (تبوريدة).

2-3 الخصوصيات الإثنية والمهارات والعادات

2-3-1 زرهون متحف اثنوغرافي

كان للظروف الطبيعية المواتية بكتلة زرهون، بالغ الأثر في تطور الحياة البشرية بها منذ عهد سحيق، إذ شهدت المنطقة منذ الفترة الرومانية وقبلها نموا ملحوظا في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. واستمرت الحياة بها بعد ذلك مواكبة كل التحولات السياسية والدينية والاقتصادية التي عرفها المجال المغربي عامة وزرهون بصفة خاصة. فقد كان لهذه التحولات بالغ الأثر في تشكيل مجموعة الزراهنة بأصول عرقية مختلفة (بني ورياغل-بني توزي-آيت شخمان-آيت احديدوا...) مشكلة بتنوعها العرقي متحفا إثنوغرافيا.

فقد كانت المنطقة في النصف الثاني من القرن 19م وبداية القرن20م وجهة لقبائل من مختلف جهات المغرب. تعددت الأسباب التي أرغمت كل واحدة منها على مغادرة مواطنها الأصلية والاستقرار بكتلة زرهون، بين باحتين عن لقمة العيش وفارين من ظروف أمنية متدهورة، وسيكون لهذا الاختلاف بالغ الأثر في غنى وتنوع المهارات والعادات والتقاليد المحلية.

2-3-2 المهارات المرتبطة بالأنشطة الفلاحية

اعتبرت الفلاحة منذ فترات تاريخية مبكرة، النشاط الأساسي لساكنة زرهون التي كانت قبائل زراعية ورعوية تنتج ما تتطلبه حياتها اليومية من مأكل وملبس، وتربطها بمجالها الترابي علاقة التأثير والتأثر.

لكن مع مرور الوقت بدأت تعرف على غرار العديد من المجالات القروية والجبلية منها على وجه الخصوص ببلادنا تحولات عميقة، خاصة فيما يتعلق بنمط تدبيرها الجماعي للمجال وموارده الجماعية: الأراضي، المراعي، الغابة والموارد المائية...

ففيما يخص تدبير الموارد المائية، كان استغلال هذا المورد يتم في العديد من دواوير الكتلة (المشخة، الخندق، بني عمار، موساوة وحمراوة...) وفق قانون متعارف عليه من قبل أفراد الجماعة، وكان هناك ما يعرف بشيخ الماء، الذي يحرص على حسن استغلال هذا المورد والفصل بين النزاعات الدائرة حوله.

كما تعرف المنطقة سيادة فلاحة جبلية تعتمد بالأساس على زراعة معاشيه وفق أساليب عتيقة وتربية الماشية بطرق تقليدية فريدة، إذ ساد بالكتلة نظام جماعي لرعي الأغنام والأبقار أطلق عليه اسم «دولة» أي القطيع. ويختار أصحاب الماشية «السارح» أي الراعي الذي يتقاضى أجرا شهريا. ويحددون معه شروط ومكان تجمع القطيع

والرجوع إليه بعد الرعي في آخر النهار. لكن هذا النظام التقليدي عرف تراجعا ملحوظا في الآونة الأخيرة. وما يهمنا من إيراد هذه النظام التقليدي للرعي، هو الأنشطة التي يمكن أن تتهيكل حوله، إذ نجد في العديد من البلدان، أنشطة ترفيهية رياضية يتم تنظيمها من خلال تنظيم رحلات لرعي الأغنام بالطرق المحلية التقليدية. (مسار الرعاة)

2-4 أنشطة ثقافية متميزة

تنظم بكتلة زرهون أنشطة ثقافية متنوعة، تتيح إمكانية التعريف بمقومات الكتلة الثقافية، وتعكس جانبا من التنظيم، والتأطير، والدينامية التي تميز ساكنة الكتلة، ومنها:

- المهرجان الثقافي والفني ببني عمار: ينظم أواخر يوليوز من كل سنة بمبادرة من جمعية قدماء تلاميذ بني عمار، تتخلله مجموعة من الأنشطة الثقافية والفنية (كرنفال الحمار). وهو مناسبة للتعريف بإمكانات المنطقة ومواردها المحلية.
- المهرجان الدولي للموسيقى الروحية: تظاهرة ثقافية تنظم كل سنة(بداية شتنبر) من قبل جمعية فاس سايس بموقع وليلي الأثري، يتضمن عروضا مسرحية وسهرات غنائية تحييها فرق وطنية وأجنبية.
- المهرجان الدولي لوليلي : بمبادرة من وزارة الثقافة، يقام المهرجان بإحياء ليال للموسيقى المتوسطية داخل الموقع، تتخللها أنشطة ثقافية متنوعة.
- مهرجان الزيتون: لقاء كان سنويا في السابق، تنظمه جمعية قدماء تلاميذ مدينة مولاي إدريس، انطلاقا من أهمية زراعة الزيتون بالمنطقة، ولهدف أساسي يكمن في تسويق المنتوج. لكنه عرف تراجعا في السنوات الأخيرة.

نشير في الأخير إلى أن المنطقة غنية بخصوصياتها الإثنية ومهارات ساكنتها وذاكرتهم الجماعية، فكلها عناصر يمكن أن تشكل قاعدة لبناء الحيز الترابي الذي يعتبر منطلقا لتحقيق التنمية، كما نعتبرها مصدرا للعديد من الانشطة التي تسمح بتطوير قطاعات عدة كالسياحة والفلاحة والصناعة التقليدية..، في أفق تحقيق تنمية متكاملة ومندمجة.

III. تثمين التراث الثقافي بكتلة زرهون: مشروع قطب لاقتصاد التراث

تثمين وتعبئة التراث الثقافي في مشاريع تنموية هو الرهان الحقيقي لضمان صيانة واستدامة التراث والتنمية بكتلة زرهون. إذ أن تثمين الموارد التراثية الثقافية قد يطال ويؤثر في العديد من القطاعات: السياحة، الفلاحة،

منتوجات الصناعة التقليدية ذات الجودة العالية ومهارات أخرى. كما أن تعبئة وتثمين التراث الثقافي ضرورة تقتضيها متطلبات صيانة الشخصية المحلية وتقوية الهوية، وكذا دينامية النسيج الاقتصادي المحلي بكتلة زرهون.

فنظرا لهذه الاعتبارات وغيرها، يمكن اعتبار التراث عامة والتراث الثقافي على وجه الخصوص، بعدا جديدا وعاملا أساسيا في التنمية الترابية. ويتطلب إدماجه على هذه المستويات العمل على بناء مشروع ترابي يأخد بعين الاعتبار تعبئة الموارد القائمة والكامنة وانتهاز الفرص المتاحة، وكذا تجاوز الاكراهات ومواجه التحديات المستقبلية.

يطابق قطب لاقتصاد التراث في المفهوم وفي العمق مع المشروع الترابي، فهو بناء يستعمل التراث ليس فقط كعناصر ثقافية أو سياحية، لكن كإمكانات مهمة لتنمية متجددة تستجيب لانتظارات المواطنين، وكرابط بين مجموع الأنشطة الاقتصادية المندرجة قصدا في العصرنة. وهو مسلسل يسعى إلى تركيز المبادرات المحلية في إطار شبكة من العلاقات والخدمات المتبادلة من أجل خلق تنمية اقتصادية. هذا بالإضافة لخلق فرص الشغل المرتبطة بتحسين إطار الحياة والبيئة.[16]

اختيار قطب لاقتصاد التراث بزرهون نابع بالأساس من توافر عناصر غنية ومتنوعة من التراث المحلي، إذ أن الصبغة التراثية لجل الموارد بكتلة زرهون جعلتنا نزداد يقينا بقابليتها لتعتبر قطب لاقتصاد التراث، وبالإضافة لدينامية الفاعلين المحليين من جمعويين ومؤسساتيين، ورغبتهم في تعبئة وتثمين مواردهم التراثية التي تفرض نفسها بالكتلة.

ونابع كذلك من تزايد الاهتمام على الصعيدين الوطني والعالمي بالتراث كمورد ترابي يمكن أن يساهم في خلق أنشطة جديدة، وتقوية الشعور بالانتماء وترسيخ الهوية، وبالتالي بناء الحيز الترابي.

ـ على المستوى الوطني: نلمس هذا النزوع من خلال تطور مفهوم التراث ببلادنا، انطلاقا من الحوار الوطني حول إعداد التراب(2000)، والذي ساهم في إغناء مفهوم التراث بحيث أصبح يشمل بالإضافة للعناصر الثقافية والمعمارية والتاريخية، عناصر طبيعية من مشاهد وثروات بيئية ومنتجات ذات خصوصية محلية. تشكل في مجملها رهانا جديدا وأداة حاسمة لتحقيق التنمية.

ـ على المستوى العالمي: نلمس كذلك هذا الاهتمام انطلاقا من تجارب العديد من الدول فيما يخص تثمين وتعبئة التراث عامة والثقافي منه على وجه الخصوص في أنشطة اقتصادية وثقافية واجتماعية. خاصة بفرنسا التي تعتبر بلدا رائدا في هذا الميدان منذ بداية التسعينات، إذ نمت وتطورت بها العديد من مشاريع تثمين التراث منها: أقطاب اقتصاد التراث (بلد الألوان بسان سافان و فنون النار بليموج ثم قطب الرون لاقتصاد التراث...) وكذا مدن وبلدات الفن والتاريخ، والمنتزهات الطبيعية الجهوية والمتاحف الطبيعية والطرق الموضوعاتية...

[16] **لحسن جنان (2008)**: محاضرات السنة الثانية من ماستر: التراث والمجال والتنمية.ظهر المهراز، فاس.

فكلها مشاريع اتخذت من التراث منطلقا لها باعتباره موردا في حد ذاته، وليس مجرد أشياء ثقافية وتاريخية جامدة تستدعي الحماية والصيانة وفقط.

ويهدف المشروع بالأساس لتنويع مصادر دخل الساكنة المحلية وتحسين مستوى وظروف عيشها، وبالتالي ضمان استقرارها بمجالها الترابي وإحساسها بالانتماء إليه والغيرة عليه، وذلك انطلاقا من:

- صيانة التراث وتوثيقه وترميمه والمحافظة عليه من خلال مجموعة من التدابير القانونية والتنظيمية والتقنية.
- تعبئة الموارد والتراثية في أنشطة ثقافية واقتصادية واجتماعية.
- إحياء مكونات الثقافة المحلية من موسيقى وفنون شعبية وذاكرة جماعية وعادات وتقاليد واستحضار التاريخ المحلي، من خلال دعم الأنشطة الثقافية من ندوات ولقاءات علمية ومهرجانات ومواسم دينية وثقافية.
- تعبئة الفاعلين المحليين في إطار تنظيمات محلية قوية، قادرة على رد الاعتبار لهذا المجال وتوجيه الاهتمام إليه.
- ضمان استفادة الساكنة بشكل مباشر من الموارد التراثية عن طريق إنعاش المبادرات المحلية.
- تشجيع ثقافة الابتكار والتجديد والقدرة على التكيف مع المستجدات ومسايرة التحولات الداخلية والخارجية.

كما يسعى لتخفيف الضغط على الموارد القائمة بكتلة زرهون، من خلال تنويعها وجرد وتعبئة الكامنة منها. هذا بالإضافة إلى بناء علاقة وطيدة بين الفاعلين وحيزهم الترابي، وتنظيمهم والعمل على تجاوز الخلافات فيما بينهم باعتبارهم يدبرون عنصرا ممتلكا من طرف الجميع بالشعور. ويهدف أيضا إلى تجاوز المسالك التقليدية في التفكير والتدبير.

خاتمة

بالرغم من أهمية كتلة زرهون التاريخية والثقافية والدينية على مستوى مجالنا الوطني، فإنها لا تزال تعاني من إهمال وتهميش ساهم في خلق نوع من التأخر، وكان له بالغ الأثر في تفاقم تدهور عناصر من التراث المحلي. وأصبح الخلل يمس بشكل كبير الجانب البشري والإنساني. فرد الاعتبار لهذا المجال معناه رد الاعتبار لساكنة لها ثقافة ولها رصيد تاريخي وذاكرة جماعية غنية ومتنوعة، تشكل جزء من الذاكرة الوطنية وحمايتها ضرورة تقتضيها متطلبات صيانة الشخصية الوطنية وتدعيم أسس الثروة الوطنية.

فالتركيز على العنصر البشري في المسلسل التنموي معناه، بعث الهوية وإحياء الثقافة المحلية وما تزخر به من عناصر متنوعة من التراث الثقافي المادي والمعنوي، الذي يشكل موردا تراثيا قادرا على تحقيق قيمة مضافة، اقتصادية واجتماعية وثقافية وايكولوجية.

يمكن للتراث الثقافي باعتباره موردا تراثيا ذو خصوصية محلية بكتلة زرهون أن يساهم بشكل وافر في بلوغ أهداف التنمية المنشودة. إلا أن هذه النظرة تصطدم بعوامل كبح مختلفة، منها:

- ✓ جهل آخذي القرار بالقيمة الاقتصاد للتراث الثقافي.
- ✓ اعتماد إجراءات تثير أحكاما مسبقة عن نجاح مشاريع تثمين التراث الثقافي.
- ✓ قلة وعي الساكنة المحلية بأهمية مواردها التراثية، وضرورة صيانتها والمحافظة عليها.
- ✓ استغلال فوضوي ومفرط لبعض المواقع والعناصر التراثية.

كما يمكن للتسيير اللاعقلاني للتراث عامة والتراث القافي منه على وجه الخصوص، أن يؤدي إلى نتائج سلبية على:

– السكان : فقدان الهوية والشخصية المحلية وتدهور إطار الحياة العامة.

– التراث : التخوف من أن يصبح التراث شيئا عاديا، إذا ما ركز عليه بشكل كبير في كل المجالات، واعتباره موردا خصوصيا بالنسبة لها.(La banalisation du patrimoine)

فالصيانة المندمجة للتراث الثقافي وتعبئته انطلاقا من أشكال مختلفة من التنظيم (قطب اقتصاد التراث)، تقتضي تجنيد الفاعلين وتحديد الإجراءات القانونية والتنظيمية والمالية لتدخلاتهم، وهو ما يمكن أن نسميه بشروط التعبئة المحلية والوطنية من أجل حفظ وتثمين التراث الثقافي. هذه الأخيرة التي تبقى رهينة بتحديد الصلاحيات، وتوزيع الأدوار، وضبط علاقات التشارك والتعاون والتعاقد بين الفاعلين، وتوفير الهياكل والمؤسسات القانونية والتنظيمية الملائمة، وتأهيل نظم التمويل لتواكب هذا التطور.

البيبليوغرافيا

✓ **باللغة العربية :**

- **امارتيا سن(2000)** : التنمية حرية، سلسلة عالم المعرفة،عدد303، مايو2004.
- **المهدي المنجرة(2006)**: قيمة القيم، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.
- **باشوية مولاي ادريس زرهون(2009)**: التقرير السنوي حول موسم مولاي إدريس الأكبر.
- **لحسن جنان(2008)**: محاضرات السنة الثانية من ماستر: التراث والمجال والتنمية، كلية الاداب ظهر المهراز، فاس.
- **لحسن جنان(2007)**: كلمة تقديم مجلة دفاتر جغرافية، التراث والمجال والتنمية، عدد4/3 كلية الاداب ظهر المهراز فاس.
- **شارلز لاندري (2007)**: لندن كمدينة إبداعية، سلسلة عالم المعرفة، الصناعات الإبداعية، عدد 339، الجزء2.

- **عبد الرحمان الدكاري (2011)**: التراث المعماري بكتلة زرهون بمقدمة جبال الريف: الذاكرة المجالية ومظاهر التحول، مقال غير منشور.
- **علي واحدي (1986)**: مكانة وليلي الاقتصادية في عهد الرومان، رسالة السلك الثالث في التاريخ القديم، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.
- **محمد مقدون (1998)**: التوسع الحضري بوليلي، رسالة لنيل الدكتوراه في التاريخ القديم، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.

✓ **باللغة الفرنسية :**

ATMANI.M, EL BOUAMI.F et LAGHRARI.Z (2004) : Pour une étude de l'impacte de la sécheresse sur le climat méditerranéen du Massif de Moulay Idris Zerhoun, revue géomagrheb, n2.

BELARABI. M (1980) : Zerhoun, population et structure agraires, étude de géographie rurale, thèse de Doct de III cycle, Univ bordeaux III. France.

BENHALIMA. M.T (2005) : Etude de la problématique de développement du tourisme culturel et rural dans la zone de Moulay Idris Zerhoun-Volubilis, thèse de III cycle. ENA de Meknès.

BERTHIER. P (1938) : Essai sur l'histoire du massif de Moulay Idris, de la conquête musulmane à l'établissement du protectorat français. Ed, Félix MANCHO, Rabat.

HERBER. J (1922) : Technique des poteries rifaines du Zerhoun. Rev, HESPERIS, V :2.

ICOMOS(1996) : Liste du patrimoine mondial, Volubilis, N°836.

JENNAN. L, LANDEL. P.A et SENIL. N : Le patrimoine: une ressources pour le développement territorial. Expériences de mise en œuvre de pôles d'économie du patrimoine au Maroc. Revu cahiers géographiques, N° 3/4, FLDM,Fes.

LIMANE. H et CHERGUI. A (2004) : Pour un projet de tourisme culturel dans la région du Zerhoun, texte manuscrite.

MAKDOUN. M (2008) : Essai sur les potentialités touristiques du Massif du Zerhoun. Texte manuscrit.

PANETIER. Jean-luc (2002): Volubilis, une cité du Maroc antique, éd Maison-neuve et Larose, paris.

WAHBI. D (1984) : Moulay Idris du Zerhoun, évolution d'une petite ville traditionnel en crise, 2vol, thèse de 3ème cycle, géographie, Univ de Tours.